

عن الفضاء الروائي ... المصطلح والمفهوم!

أ / حبيبة العلوي

ملحقة بالبحوث مركز البحث العلمي والتقني

لتطوير اللغة العربية

Résumé :

Nous avons essayé dans cet article d'introduire la notion d'espace romanesque au lecteur arabe. Cette notion qui n'est pas encore stable, vu sa nouveauté dans les terrains de recherches romanesques, puisque le roman n'était jamais considéré comme un art spatial mais un art temporel au fond.

C'est grâce aux efforts de la nouvelle poétique, qu'on a commencé à s'intéresser à la structure spatiale du roman et la considérer comme une structure élémentaire, ce qui a engendré tous les efforts de définition et de délimitation et du terme et de la notion, une notion qui reste ambiguë, vaste, enracinée dans plusieurs disciplines: géographique, physique, linguistique, idéologique ...

Cet article va trancher aussi dans la question terminologique; en adoptant un équivalent arabe - du terme "espace romanesque" - ; qui peut refléter et englober la complexité de cette nouvelle notion.

لأنّ الفضاء الروائي مفهوم واسع وإشكالي، لزم أن يقابله من حيث الجدل المصطلحي ما يشي ويعكس عدم قراره واضطرابه النظري، المردود في الأصل إلى حادثة الوعي به كمكون أساس من مكونات الحكيم، المعدود عرفاً فناً زمنياً لا يحتل منه المعطى الفضائي غير هامش التأثير، ودور الديكور وخلفية الحدث؛ إذ يبدو أنه **في البدء كان الزمن !** على حدّ تعبير " **جون ويجيربر** " (Jean Weigerber)، الذي لم ير في استقلال الزمن الروائي بعيد من الدراسات خلافاً للفضاء، أيّ مدعاة للتعجب أو الدهشة، ما دام وجود العالم التخيلي أصلاً متعلّق في جوهره بهذا الزمن . زمن الخطاب وزمن القراءة . الذي يتفرّد في الأدب بالصدارة على الفضاء المرهون في تشكّله، بلحظة قعودنا إلى الكتابة أو القراءة ...¹ ، على خلاف **هنري ميتران** (Henri Mitterand) الذي نجده لا يخفي تذمراً صريحاً من التقصير والقصور النظري حيال دراسة والإحاطة بهذا المكون الفنّي للرواية: " (...) لم نقر، إلى الآن إلاّ دراسات قليلة جدّاً لبحث تشخيص الفضاء في الأدب. ولست أقصد بكلامي فضاء النص الذي يشرع، منهجياً، في دراسة معالمه من خلال تعليقات أضحت مألوفة، تتناول عنوان الكتاب، وغلافه والمستهلّات، وبدايات الفصول ونهاياتها، والتنوينات الطباعية والفهارس، الخ. وإنما قصدت

الفضاء من حيث هو تخيل، والفضاء من حيث هو مضمون ومعطيات طبوغرافية حول الحدث المتخيل والمروي (...)[ف] لو التفتنا إلى محلي المحكي الأدبي للاحظنا أن اهتمامهم، إلى الآن، قد اتجه، على وجه الخصوص، إلى البحث في منطق الأحداث، ووظائف الشخصيات وزمنية المحكي. فلا وجود لنظرية قائمة بذاتها في التفضي (spatialisation) السردية، وإنما هو سبيل في بحثها مازال، بعد، لم يستقم، وسبل أخرى مازالت قيد التهييء. ويتمثل التوجه الأكثر حيوية في هذا الصدد، في ما أسماه [غاستون] باشلار بشعرية الفضاء، أو "علم للنفس يدرس مواقع حياتنا الحميمة دراسة نسقية" ² أو "التوبو تحليل" (la topo-analyse)؛ كما اصطلح عليه وعرفه غاستون باشلار (Gaston Bachelard) نفسه: "سنمنح راضين لهذا التحليل السائد للتحليل النفسي [la (psychoanalyse)] اسم التوبو - تحليل ³ (la topo - analyse) ، ليكون التوبو. تحليل إذن، الدراسة النفسية المنتظمة، لمواقع حياتنا الحميمة"⁴

غير أن غاستون باشلار كما يتجلى لنا ذلك جيداً، لم يقصد بشعرية فضاءه إلى حلّ مأزق فني جمالي، بل على العكس، لقد استند إلى النص والعمل الفني الأدبي الشعري. لضرورة منهجية تتعلق بعقيدته الظاهرية⁵. في الإجابة عن همّ وسؤال نفسي على ضوء منهج ظاهري: "لا بدّ أن نقول إذن كيف نقطن فضاءنا الحياتي في وفاق مع كلّ جدليات الحياة، كيف نتجذّر يوماً بعد يوم في "ركن من العالم"⁶ !

يبقى أنه أسس لمرجعية كاملة وتوجه حيوي وفاعل. كما سبق وأن وصفه هنري ميتيران. خاصة لدى التيار الذي أخذ على عاتقه "دراسة القيم الرمزية المقترنة بالمجالات التي تتاح لنظر السارد أو لنظر شخصه، أو القيم المقترنة بإمكانة إقامتها، كالمنزل والغرفة المغلقة، والقبو، والمخزن، والقبور (...)[و] التعارضات القائمة بين الأمكنة الضيقة والأمكنة الهامشية، وبين الأمكنة الواقعة تحت الأرض والأمكنة المرتفعة في الأجواء [التي] تمثل موجّهات تشفّ عن متخيل الكاتب والقارئ معاً."⁷

التيار والتوجه الذي برع فيه حسب هنري ميتيران دائماً كلّ من "جورج بيلي وجيلبير دوران في بحث تلك التعارضات، لولا أنهما درساهما، عموماً لذاتها دون أن يتفحصا ترابطاتها مع النظام المكاني للأثر الأدبي في كليته أو يسيرا ترابطاتها، في الأعمّ، مع مجموع مكوناته السردية"⁸، وهذا بالضبط. أي دراسة التعارضات أو التقابلات الباشلارية، أو دراسة أي معطى فضائي، بمعزل عن البنية الفضائية والعامّة للحكي. ما سيشكل عائداً أمام التأسيس لدرس حقيقي للفضاء الروائي كبناء سردي يتكامل والبناءات السردية الأخرى من زمن وحدث وشخصيات.

ولذلك كان علينا وأمام شهادة رائدين . هنري ميتران وجون ويجيرير. من أبرز رواد هذا المبحث الروائي بافتقار هذا الأخير لنظرية محكمة وقارة ولو نسبياً، ألا نتوجس ونرتبك كثيراً حيال الفوضى التنظيرية التي سنتعربنا وتعترضنا حتماً في أثناء الخوض في مساعي مقارنة هذا المصطلح والمفهوم المرتبك أصلاً. أو على الأقل علينا أن نتجاوز هذا الشعور الحتمي والطبيعي، بالنتزة عن دعوى إمكانية الإحاطة به نظرياً والاعتراف بمحدودية مطمحنا المقتصر على محاولة الاطلاع على المقولات النظرية المؤسسة له.

1. التحديدات المختلفة

لما كان للفضاء كمفهوم طبيعة خاصة تجعله مثار جدل مباحث معرفية عدة تبدو متباعدة: جغرافية، اجتماعية، نفسية، لغوية، أدبية، إيديولوجية... الخ، كان من الحتمي أن تتعدد وتتباين التحديدات الساعية إلى حصر مفهوم مصطلح "الفضاء الروائي"، تبعاً لزاوية النظر والخلفية المعرفية التي انطلق منها، واستند إليها في مقارنته.

ولذلك سنجدنا حيال فضاءات روائية لا فضاء واحد . لأن المفهوم في أصله متعدد لا واحد . فهذا يعدّه من حيث جوهر تشكيله فضاءً لفظياً لغوياً (un espace verbal) بامتياز، وذلك يراه من حيث واقعه الملموس والمادي فضاءً نصياً طباعياً لا غير (un espace textuel)، وآخر ينتصر لطابعه الجمالي الفني، فيقول بكونه فضاءً حكاياً سردياً خالصاً (un espace narratif, fictif)، ورابع يطمئن إلى وصفه بالبناء الأيديولوجي (un espace idéologique)؛ الذي تؤسّسه وجهات نظر قاطنيه، قائله، ومتلقّيه...

على أنّ الفضاء الروائي في النهاية هو كلّ ذلك، أو على الأحرى هو كلّ تشكّله هذه البنيات . لا التصنيفات . الفضائية: اللفظية والطباعية والحكاية والأيديولوجية ، ولو بشكل متفاوت ومتفاضل؛ إذ لا يصحّ أن نمنح مثلاً للبنية الطباعية أو الإيديولوجية للفضاء الروائي نفس الوزن والنقل والأهمية والبنية اللغوية السردية، خاصة لو قصدنا إلى دراسة تعنى بالفضاء الروائي كبناء فني جمالي للحكي⁹ ففي البدء يفترض دوماً أن تكون اللغة والحكاية ومن ثمّ النص كطباعة¹⁰ أو كأيديولوجيا¹¹.

صحيح أنّ "الفضاء الأدبي" (l'espace littéraire) على حدّ تعبير جون ييف تاديي (Jean – Yves Tadié) "قلّما يتمظهر، من حيث المعنى الملموس، في غير الصفحة، وطريقة انتظام البياض والسواد [عليها]"¹²؛ ذلك أنّ الصيغة الفضائية للأدب لدى الغرب خاصة . الذي يعيش حضارة لا يقام فيها فصل بين الأدب والمكتوب مما لا يمكن اعتباره أمراً عرضاً، أو غير ذي أهمية . مرتبطة بشكل

أساس وكما اعترف جيرار جونيت (Gérard Genette) بتلك الوسائل البصريّة؛ يقصد "شكل الخط وتنظيم الصفحة وهياكل الكتاب في كليته (...)" [لتصير] من هذا المنظور الجديد أكثر تنبهاً إلى فضائية الكتابة، وترتيب الأدلة، والكلمات والجمل والخطاب ترتيباً لا زمنياً، تكون به قابلة لأن تعكس، في إطار تزامن (simultané) [أو أي] في نطاق ما نسميه نصاً...¹³.

ويضع ميشال بيتر (Michel Butor) يده على يد جونيت بدعوته المتلقّي إلى محاولة قراءة الدلالة الإضافية التي يمنحه إيّاها شكل الحروف وحجمها كذلك تنظيم البياض والسواد على الصفحة...¹⁴

وبرزت في هذا الاتجاه بالفعل عدّة دراسات حول فضاء النص أو ما يعرف بالفضاء الطباعي "من خلال تحليل العناوين أو الغلاف أو المقدمات وبدايات واختتام الفصول والتنويعات الطبوغرافية المختلفة وفهارس الموضوعات..."¹⁵.

يكون ذلك من منطلق وبمنطق أنّ الألفاظ قاصرة على تشييد فضائها الخاص بسبب طابعها المحدود والناقص بالضرورة على رأي حسن بحراوي، مما يدعو الراوي إلى تعزيز سرده بوضع طائفة من الإشارات وعلامات الوقف في الجمل داخل النص المطبوع: "وهكذا فنتيجة التقاء فضاء الألفاظ بفضاء الرموز الطباعية ينشأ فضاء جديد هو الفضاء الموضوعي للكتاب (L'espace objectif) أي فضاء الصفحة والكتاب بمجمله والذي يعتبر المكان المادي الوحيد في الرواية حيث يجري اللقاء بين وعي الكاتب ووعي القارئ"¹⁶

وبذلك يمكننا في الواقع أن نعدّ هذا الفضاء . الطباعي يعني . بنية مساعدة تسند البنية الأساس للفضاء الروائي . أي البنية اللفظية الحكائيّة .؛ بمنطق أنّ هذا الفضاء ليس له وشائج كبيرة بمضمون الحكّي على أهميته؛ من حيث إنه قد يوجّهنا إلى تفهّم خاص للعمل، فهو كذلك " (...) فضاء مكاني لأنّه لا يتشكّل إلّا عبر المساحة، مساحة الكتاب وأبعاده، غير أنه مكان محدود ولا علاقة له بالمكان الذي يتحرّك فيه الأبطال، فهو مكان تتحرّك فيه . على الأصح . عين القارئ، هو إذن بكل بساطة فضاء الكتابة الروائيّة باعتبارها طباعة"¹⁷، أمّا أن ننحاز ونقصر درسنا للفضاء الروائي في عمل شكلاني تجريدي فظّ يتجافى وطبيعته الجماليّة^{18/19}، كما شاع حديثاً بدعوى الموضوعيّة والإيجابيّة (Positivisme) العلميّة التي تتحاشى التعامل مع غير المادي والملموس، فذاك ما لا يخدم الخطاب النقدي ولو ضمن له مجد الدقّة العلميّة...

وصحيح أيضا أنّ هناك من يعتبر ويرى في "الفضاء المتخيّل، في نصّ من النصوص المجال المفضّل لتجليّ أدلوجة من الأدلوجات" ²⁰؛ من حيث هو بنية سردية لا يمكن أن تستقلّ بأي وجه عن وجهات النظر المتحكّمة في الحكي، بل إنّها محكومة بها؛ ذلك أنّ " (...) الفضاء في الرواية ينشأ من خلال وجهات نظر متعدّدة لأنه يعاش على عدّة مستويات: من طرف ا لراوي بوصفه كائنا مشخّصا وتخيّلًا أساساً. ومن خلال اللغة التي يستعملها. فكل لغة لها صفات خاصّة لتحديد المكان (...) ثم من طرف الشخصيات الأخرى التي يحتويها المكان، وفي المقام الأخير، من طرف القارئ الذي يدرج بدوره وجهة نظر غاية في الدقّة. ^{22/21}

ولنا في أدب القرنين التاسع عشر والعشرين ²³ نموذج بارز وواضح يفيد بأنّ "الفضاء المشخّص [هو] أبعد من أن يكون "طبيعيًا"، [إذ] ليس له من معنى إلّا في علاقته برغبة الذات، وبالغريبة [(altérité)] ²⁴ وبالزمنية (زمنية الدال في الشعر والزمنية الحديثة الحكائية في النص النثري)، إلخ.

فهذه العلاقة لا التشخيص الفضائي العارض أو الوظيفي، هي ما يشكّل نقطة التقاطع بين الفضاء المتخيّل والفضاء الثقافي "الواقعي" (أكان مدركا وجغرافيًا، أم غير ذلك).
إنّ الفضاء المشخّص داخل نصّ أدبيّ [إذن]، هو فضاء كاشف لأدلوجة معيّنة: لا لإمكان تطابقه أو تناقضه مع الفضاء المرئي، أو مجرد اختلافه عنه، بل لمنطق انكتابه داخل الخطاب الجامع الذي يمنحه معناه.

قلت: المنطق، أو بعبارة أخرى: الشكل. فالطابع الشكلي لانكتاب المكان داخل مجموع النص، هو ما يبرز مضمّن الأدلوجة السائدة، التي تفرض رؤية معيّنة للمنظر الطبيعي، وللمدينة و للمسافات، أي للفضاء" ²⁵.

ولأنه كذلك . أي لارتباطه في الأساس بالبنية الشكلية الفنية الحكائية . يبقى تلقينا للفضاء كوجهة نظر معبّرة عن أيديولوجيا معيّنة مشروطا حسب قناعتنا باستيفاء دراسة الفضاء؛ من حيث بنياته الشكلية الأساسية؛ أي اللغوية فالحكاية فالتبعية، ولو أنّ لقائل الحق في القول بقصور هذا الطرح، من حيث إنّ الدراسة الشكلية للفضاء ستمتّز وسيتملّلها ويخترقها حتما التعرّض للمعطى الأيديولوجي، غير أنه سيبقى دوما للفصل بين البنيات ضرورة منهجية.

ويبقى تلقينا للفضاء، هذا التلقّي ذي الإستراتيجية التأويلية، الذي يتقصّد إجلاء المعنى الخفي وإنطاق المسكوت عنه أو بعبارة أخرى " [البحث عن المعنى كما انكتب، و كما ينبغي أن يقرأ] ²⁶ تلقّ

ما بعد بنوي²⁷، لا يمكن بأي حال أن يتجاوز أو يتجاهل أو يطغى على دراسة البنية الفضائية، من حيث هي لغة وشكل حكاوي، وبذلك يقرّ يوري آيزنزفايغ (Uri Eizenzweig)، ويخلص على الرغم من تطرفه للفضاء كأيدولوجيا: "(...) والخلاصة أنّي كنت لا أرى من معنى للتحليل البنيوي في غياب اهتمام أدلوجي، فإنني لا أتصور، في المقابل، تحليلاً أدلوجياً لا يمرّ ممّا يكون الخصوصية الأدبية. إلا أنّ كلّ ذلك بدهي، أو يجب، على الأقلّ، أن يكون كذلك." ²⁸

2. الطرح العربي

عن "المكان" ... و"الفضاء" !

لا يمكننا الادّعاء بأي حال بأننا نريد الإحاطة بمقولات النقد العربي حول مفهوم الفضاء الروائي؛ كمبحث طارئ عربياً وغريباً على نقد الرواية، إنّما هي مقارنة ومحاولة استشعار لمدى انشغال درسنا النقدي الحديث بهذا المفهوم، الذي مازال الاهتمام به يتعرّز ويترسّخ يومياً بعدد من الدراسات التي تصبّ كلّها في مقصد استدراك تقصير سابق في حقّه.

والمعضلة عربياً دوماً تبدأ . وقد تختصر في . بالمصطلح، خاصّة عندما يتعلّق الأمر بمفهوم مستورد أو لنقل على الأقلّ اهتمام مستورد، إذ إنّنا لا يمكن أن ندّعي أن الاشتغال العربي أو الانشغال العربي بالمعطى الفضائي في درس الرواية نابع من همّ أصيل، فحتّى وإن كان لهذا الهمّ كلّ المبررات الشرعية للوجود²⁹، يبقى للدرس الغربي من حيث التأسيس النظري لهذا المصطلح المحض روائي³⁰ حقّ السبق، ويبقى للجدل المصطلحي مساحة مبرّرة عربياً بحدّاته المبحث³¹ وأزمة المصطلح القارة في كلّ ما يفد علينا أو نطرق من علوم وإشكالات غريبة.

ويبدو أنّ الفضاء الجغرافي . إن لم يكن الأيدولوجي! . هو الذي سيحكم أيضاً هذه الأزمة؛ بحيث سيشتيع في المشرق العربي اسم المعرفة: "المكان" كمعادل وحيد لمصطلحات غريبة متباينة نسبياً كما لاحظ طاهر عبد مسلم³² . "إنّ الشائع في ثقافتنا العربية [والمقصورة مشرقياً عادة في الثقافة المشرقية] هو ترجمة مصطلحي (space)³³ و (place) وحتّى (location) على أنّها جميعاً مرتبطة بمرادف واحد هو "المكان" (...) [إذ] لم يجر تمهيط واضح للانتقال الحسي والفكري بين المستويات المكانية من الكلّي والعام الشامل (space) إلى الجزئي (place) فالأكثر جزئية (location) " ^{34/35}

وقد ترسّخ هذا الواقع في الأدب ونقد الرواية على يد سيزا قاسم التي تعدّ من أهم وأوائل الطارقين عربياً لهذا المبحث، وقد أفردت فصلاً هاماً من كتابها "بناء الرواية" لدراسة بنية المكان الروائي . هكذا

تسميّه . في ثلاثيّة نجيب محفوظ، ومهّدت لها بعرض نظري لجملة من آراء رواد هذا الدرس، يمكن أن يستخلص منه تصوّرها الشامل لهذا المبنى الروائي . كما تصفه دوما . الذي يتميّز عندها بكونه تشييد لغوي متخيّل، يتحقّق في لحظة القراءة، يستند الكاتب في تشكيله إلى مرجع واقعي أو ذهني ليؤسّسه بوسائله الخاصّة؛ والتي تتلخّص لدى هذه الناقدة ومظهر مادّي للفضاء في الوصف، الذي يؤثّر لنا وبأنواعه فراغا تتحرّك فيه وتتنقّل شخصيّات الرواية وتملؤه أشياءها العاكسة لسماتها... هذا أولاً، كذلك في تنظيم معيّن للسواد على البياض في الرواية، والذي يعكس رؤية فضائيّة تسم

المؤلف... 37/36

وعلى كونها كرّست جهدها التطبيقي وقصرته على معاينة تقنيات الوصف بوصفه الأداة الوحيدة . بالنسبة لها. التي تقدّم لنا البناء الفضائي للرواية، مجانية بذلك رؤيتها الأوليّة الشاملة، يبقى أنّها كانت " أكثر فهماً للفضاء باعتباره "مكاناً خياليّاً له مقوماته وأبعاده المميّزة " تخلقه الكلمات وليس هو بأية حال من الأحوال . حتّى وهي تسميّه المكان . "المكان الطبيعي" بل مكان الرواية^{39 / 38}

وقبلها أقبل غالب هلسا على ترجمة (la poétique de l'espace) لغاستون باشلار بـ "جماليّات المكان"، الأمر . يعني هذا الترسيخ لمصطلح المكان . الذي تصدّى له جماعة من النقاد المغاربة بإقرارهم لمصطلح "الفضاء"، كمعادل عربي بديل يسع شموليّة وكليّة المصطلح الغربي (Espace/Space)، نجد على رأسهم حسن بحراوي وحמיד لحمداني وحسن نجمي، هذا الأخير الذي مازال يحمل غالب هلسا مسؤوليّة هذا الخلط الاصطلاحي، يقول: "ورحم الله الروائي العربي الكبير غالب هلسا؛ لقد ارتكب جناية من ذلك النوع الذي يمكن أن نسميّه بالجريمة الرفيعة في حق الحقل النقدي والأدب العربي. ومات ولا تزال ذيول الجناية حيّة متواصلة ذلك أنّ الرجل اندفع، تحت ضغط شغف غامض بأهميّة المكان في الكتابة، إلى ترجمة كتاب غاستون باشلار "شعريّة الفضاء" (المكتوب باللغة الفرنسيّة) عن اللغة الإنجليزيّة بعنوان "جماليّات المكان" " 40 / 41

أمّا حميد لحمداني فيحرص على التمييز بين مصطلحي: "المكان" و"الفضاء"؛ إذ يرى أنّه لا يمكننا التحدّث عن مكان واحد في الرواية؛ ذلك أنّ التطوّر في الأحداث والتغيّر، يفترض دوما تعدّد الأمكنة واتساعها أو تقلّصها... هذه الأخيرة التي تضبط عادة ولحظات الوصف المتقطّعة والمتناوبة في الرواية والتي تقتضي توقّفاً زمنياً لسيرورة الحدث، في حين أنّ الفضاء يفترض دوما تصوّر اختراق الحركة له⁴²؛ أي يفترض الاستمرارية الزمنيّة وهو يلفّ كلّ هاته الأمكنة، فهو موجود بالضرورة أثناء جريان الوقائع...⁴³ "إنّ مجموع هذه الأمكنة، هو ما يبدو منطقياً أن نطلق عليه اسم: فضاء الرواية، لأنّ

الفضاء أشمل، وأوسع من معنى المكان. والمكان بهذا هو مكّون الفضاء (...) [إنّه] شمولي، إنّه يشير إلى "المسرح" الروائي بكامله. والمكان يمكن أن يكون فقط متعلّقاً بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي ^{44/45} وعن هذا يحدّثنا "جورج بهلي" (Georges Poulet): "الأمّكنة جزر في الفضاء، جواهر [أفراد]، أكوّان صغرى منفصلة" ⁴⁶

إنّ الفضاء إذن سابق للأمّكنة، وأسبقيّته هاته تصيرّه موجوداً هنالك، حيث ينبغي أن يستقبلها، وتأتي الأمّكنة بعد ذلك لتجد لها حيّزاً فيه... ⁴⁷، إنّه كما ينتهي جورج بهلي: "نوع من الوسط غير المحدّد، حيث تتسكّع الأمّكنة" ⁴⁸

ولأجل كلّ ذلك . وليس لأجل أي اعتبار لقراية جغرافيّة عاطفيّة . تبنّت دراستنا هذه حرص المغاربة على التمييز بين مصطلحي "المكان" و"الفضاء"، وحرص لسان العرب . اللسان والمعجم! قبلهم على إبانة واعتبار الفرق ولو الدقيق بينهما: فالمكان عند ابن منظور هو "الموضع، والجمع أمّكنة وأماكن" ⁴⁹ و"الموضع هو الموقع جمع مواقع: موضع الوقوع ومواقع القتال ومواضعه" ⁵⁰، والمكان عند أبي بكر الرازي هو: "الفراغ المتوهّم مع اعتبار حصول الجسم فيه" ⁵¹ المقابل للخلاء و"هو الفراغ الموهوم مع اعتبار ألاّ يحصل جسم فيه وحاصله المكان الخالي عن الشاغل" ⁵²، وهو المعادل . أي الخلاء . للفضاء عند ابن منظور، الذي يحدّده بكونه "المكان الخالي الفارغ الواسع من الأرض" ⁵³، أي الأرض البوار الشاسعة، ويكون بذلك الفضاء أخص من المكان باعتبار خلّوه ⁵⁴ وأعمّ من المكان باعتبار شساعته المقابلة لمحدوديّة المكان الذي سيكون "فضاءً غير فارغ ومحدود، أي مسكون فيزيائياً وجسدياً ... " ⁵⁵.

وهذا بالضبط ما يتناسب وما يلبي حاجاتنا الاصطلاحيّة التي تعوز إلى مصطلح في عموميّة وشموليّة مفردة: "الفضاء". باعتبار شساعته لا خلّوه . يغطّي عموميّة وشموليّة وكنيّة وفضافيّة مصطلح "الفضاء الروائي" (l'espace romanesque)؛ بوصفه بناءً روائياً فنّياً متعدّد المظاهر: (لغوي، سردي، طباعي، ايدولوجي)، مرتبك زنبقي التحديد، ومصطلحاً في خصوصيّة مفردة: "المكان". باعتبار محدوديّة التي تقي خصوصيّة وجزئيّة أمّكنة الرواية التي ليست في النهاية إلاّ مجردّ بناءات تكوينيّة تتكامل وغيرها من البناءات الفضائيّة المحتواة في النسق والبناء الفضائي العام والكلّي للرواية.

قائمة الهوامش:

¹ ينظر،

Jean Weisgerber, *L'espace Romanesque* (Lausanne: Ed. L'age d'homme, 1978), p.9.

² هنري ميتران، "المكان والمعنى الفضاء الباريزي في قصّة Ferragus، لبلزك"، الفضاء الروائي (مجموعة مقالات)، تر. عبد الرحيم حُزل (الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق، 2002)، ص 135، 136.

³ رأينا أنه من الأفضل، لو عَرَبْنَا هذا المصطلح بدل الاستناد إلى ترجمة غالب هلسا مثلاً: "المسح التحليلي" !، كما يمكن أن نضع له مقابلاً آخر: التحليل الموقعي... ينظر، غاستون باشلار، جماليات المكان، تر غالب هلسا (ط 5؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2000)، ص 39.

⁴ Gaston Bachelard, *La poétique de l'espace* (12^e édition; Paris: Presses Universitaires de France, 1984), p. 27.

⁵ سيدعوننا باشلار كظاهراتتي العقيدة، إلى تجاوز إشكالات الوصف سواء أكان هذا الوصف موضوعياً يقول الحقائق أو ذاتياً يقول مجرد انطباعات، من أجل إدراك النقاط مباشرة لأصل ومنبت السعادة والفرح من كل فضاء؛ هذه هي مهمة الظاهراتي التي لا يمكن أن يؤديها عنه، في أي حال، لا الجغرافي ولا الإثنوغرافي ولا عالم النفس ولا المحلل النفسي...؛ ذلك أن الظاهراتية تتطلب وعياً مباشراً بالصور؛ أن نعيش الصور وكأنها وقائع فجائية للحياة، ولذلك استلكر باشلار على علم نفس التخيل (la psychologie de l'imagination) عدم استفادته من القراءة الظاهراتية التي اسمها أو وصفها بـ القراءة الكونية للفضاء، واقتصره على القراءة الاجتماعية له. ولأن الشعر هو وحده القادر على النقاط الصور في مباشرتها وعلى طراجتها تبناه باشلار كسند ومتن ومدونة يمكنها أن تقول تفاصيل فضاءاتنا الحميمة على عزيتها وصفاتها... ينظر،

Ibid., pp.1-21.

⁶ Ibid., p. 24.

⁷ هنري ميتران، مرجع سبق ذكره، ص 136.

⁸ المرجع نفسه، ص 136.

⁹ من حيث أن جوهر فنية الرواية هي لغتها وسردها ومن ثم تأتي التفاصيل الأخرى، كواحق واستطرادات فنية وفروع تعزز الأصل، أو هذا على الأقل ما يفترض.

¹⁰ وحتى لو قيل أن أول فضاء مادّي يعترض القارئ، عند الشروع بقراءة الحكيم هو فضاء الصفحة والغلاف والسواد الذي ينتظم على مساحة البياض.

¹¹ وحتى لو قيل أن أيديولوجيا الكتابة والقراءة تسبقان فعلي الكتابة والقراءة...!

¹² Jean-Yves Tadié, *le récit poétique* (France: Editions Gallimard, 1997), p. 47. (ترجمة صاحبة المقال).

¹³ جبرار جوني، "الفضاء والأدب"، الفضاء الروائي (مجموعة مقالات)، مرجع سبق ذكره، ص 14.

¹⁴ ينظر،

ميشيل بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر. فريد أنطونيوس (ط 1؛ بيروت: منشورات عويدات، 1971)، ص 125، 131، في محمد العافية، الخطاب الروائي عند إميل حبيبي (ط 1؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997)، ص 171.

¹⁵ Henri Mitterand, *Discours du roman* (Paris: Ed. Puf, 1980), p. 192, in

حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (ط 1؛ بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1990)، ص 28.

¹⁶ Jean Weisgerber, op. cit., p 173, in

حسن بحراوي، مرجع سبق ذكره، ص 28.

¹⁷ حميد لحداني، بنية النص السردى (ط 2؛ الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1993)، ص 56.

¹⁸ يقول حسن بحراوي عن ذات الموضوع: "عارض كثير من الشعريين هذا الاتجاه فور ظهوره لأنهم رأوا فيه ميلاً مبالغاً فيه نحو الشكيلة والتجريد. وبالرغم من كونهم كانوا يسلّمون بوجود فضاء نصّي وفضاء طباعي مندمجين ضمن حدود الكتاب فقد اهتموا أساساً بدراسة الفضاء الروائي الذي قصدوا به المكان الذي تجري فيه القصة، وليس فضاء الألفاظ أو الفضاء الطباعي كالبياضات والجداول والهوامش. وقد احتجوا لذلك بأن دراسة هذين الفضاءين في الرواية تحتاج من الباحث أن يصير واضع خرائط، وهذا عمل منقر بدون شك سيفرض عليه أن ينقل الخطيّة اللفظيّة للخطاب النقدي (linéarité verbale) إلى اللغة الجدوليّة للخريطة الطوبوغرافية..." (حسن بحراوي، مرجع سبق ذكره، ص28)، وهو بذلك يستشهد بعبارة لهنري ميتران، حيث يقول: "... يلزمنا لاستعراض أمكنة الرواية، أن نأخذ بنصيب من علم الخرائط. لكن ربما وجدنا بعض الملل في نقل خطيّة الخطاب النقدي، تلك الخطيّة اللفظيّة المحض، إلى اللغة اللاتحيّة (sous-code) التي تميّز الخارطة الجغرافية..." (هنري ميتران، مرجع سبق ذكره، ص 138، 139). ولم يكن لإشارة هنري هذه علاقة بدراسة الفضاء النصّي للرواية، يبقى أن في العبارتين إشارة واضحة إلى حساسيّة النقد الأدبي حيال أي حساسيّة جديدة تصيرّه إلى تجريدية تراعي مطمح العلميّة على حساب الخصوصيّة الجماليّة للعمل الأدبي.

¹⁹ على أنّه علينا ألا نكون قاسيين جدّاً حيال الدراسات التي تعنى بالفضاء النصّي ووصفها كلّها بالفجّة، فيمكن جدّاً أن تقوم دراسة نصيّة للفضاء الروائي على أسس تراعي جماليّته؛ مستغلّة تقنيات القراءة السائدة في الفنون الجميلة مثلاً، ومن حيث الاستناد أيضاً إلى نظريّة التلقّي، أي الاعتماد على التحليل والقراءة الفنيّة الموضوعيّة من جهة، ومراعاة تلقّي القراء العاديين من جهة موازية، مع وجوب الاستعانة بالدراسات الميدانيّة.

²⁰ يوري آيزنرثايف ، "الفضاء المتخيّل والأدلوجة" (مقترحات نظريّة)، الفضاء الروائي (مجموعة مقالات)، مرجع سبق ذكره، ص123.

²¹ حسن بحراوي، مرجع سبق ذكره، ص 32.

²² حتّى وإن كان عند كريستيفا (J-Kristeva) محكوماً بوجهة النظر الوحيدة للكاتب، الذي يقيم وحده. متحكّماً في الخطاب الروائي. أبعاد هذا الفضاء ويرسم طوبوغرافيّته، ليكون بذلك " (...) محوّلاً إلى كلّ (...) واحد[اً]، واحد[اً] فقط، مراقب[اً] بواسطة وجهة النظر الوحيدة للكاتب التي تهيمن على مجموع الخطاب. بحيث يكون المؤلّف بكامله متجمّعاً في نقطة واحدة، وكلّ الخطوط تتجمّع في العمق حيث يقبع الكاتب، وهذه الخطوط هي الأبطال الفاعلون (les actants) الذي تنسج الملفوظات بواسطتهم المشهد الروائي..." (حميد لحداني، مرجع سبق ذكره، ص 61).

²³ علينا أن ننتبه أننا نقصد الألب الغربي؛ إذ لا يمكن أن نحكم بمقولة غربيّة على أدب عربي.

²⁴ ينحدر هذا المفهوم من الفلسفة، حيث يستند إليه في تحديد الذات وفق علاقة مبنية على الاختلاف: لا يمكن للأنّا أن يعي بذاته "الأنّا" إلا بفضل وجود لا. أنا، هو آخر ومختلف... ينظر،

Patrik Charaudeau et Dominique Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours (Paris: Editions du Seuil, 2002), Description, p. 33.

²⁵ يوري آيزنرثايف ، مرجع سبق ذكره، ص129، 130.

²⁶ حسن نجمي، شعريّة الفضاء / المتخيّل والهويّة في الرواية العربيّة (ط1؛ الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص 33.

²⁷ وهو بنوي، إنما قصدت أنّ دراسة البنية الأيديولوجيّة ستكون آخر مرحلة من مراحل دراسة البنية الفضائيّة للنص.

²⁸ يوري آيزنرثايف ، مرجع سبق ذكره، ص130.

²⁹ من حيث أنّ أزمة العربي الذي عاش ويعيش سقوطاته المتعاقبة؛ منذ سقوط غرناطة في القرن الخامس عشر، إلى سقوط القدس في القرن العشرين، إلى سقوط بغداد في القرن الواحد والعشرين، هي أزمة فضائيّة في جوهرها. وللنظر كيف أننا حتّى ونحن نسوّي الاحتلال وفقد الأوطان بسقوط نعترف لهذا الفعل بفضائيّة أصيلة ! . بل وإنّ حتّى الاهتمام الغربي بالفضاء إبداعاً ونقداً . من حيث هو تشخيص لغوي لمرجع طبيعي !. لم يتضح ويتأسّس إلّا في القرنين 19 والعشرين، بترسّخ الفكر والواقع و- بالتّالي - الخطاب السلطوي الاستعماري... ينظر، يوري آيزنرثايف ، مرجع سبق ذكره، ص123 . 130.

³⁰ أقصد المفهوم الخاص للفضاء الروائي من حيث تعلّقه بدرس الرواية، لا المفهوم . والانشغال . العام للفضاء الذي يتعلّق حتماً بمعارف وعلوم ودروس أخرى سيجد الباحث والمؤصّل للمصطلح العربي حتماً ما يقوله بشأن مقولات العرب فيها وهذا ما أغفله هذا البحث.

³¹ التي أقر بها حتى النقاد الغربيون.

³² الدكتور طاهر عبد مسلم، باحث سينمائي وأستاذ جامعي متخصص في الفنون السمعية والمرئية، سيناريسست وقاص عراقي.

³³ هذا المصطلح الإنجليزي المنحدر من "(...) كلمة (spatium) اللاتينية التي تعني الامتداد اللامحدود الذي يحوي كل الامتدادات الجزئية المحدودة والتي اشتق منها الفرنسيون [بالمقابل] كلمة (espace) أما الإغريق فلم يكن عندهم مثل هذا المصطلح (الفضاء) كما أنه لا توجد في لغتهم كلمة تدل على (المكان) وإنما توجد كلمة (topos) أي موقع... ينظر،

سعد عبد الكريم، "الفضاء المسرحي بين المفهوم العربي والأوروبي"، جريدة المدى (8 فيفري 2005)، في

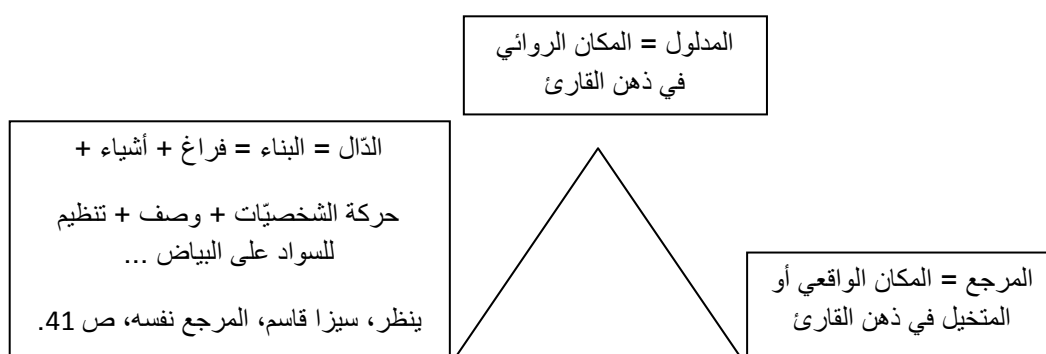
[http:// www. almadapaper. com/ sub/06-133/htm].

³⁴ طاهر عبد مسلم، عبقريّة الصورة والمكان / التعبير . التأويل . النقد (ط1؛ عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002)، ص 24.

³⁵ وقد شكّل هذا التتميط والتصبيق موضوع جدل بين النقاد الغربيين الذين حرصوا على التمييز بين الفضاءات من حيث مستويات اتساعها ومحدوديتها، فلم يرض الإنجليز عن اتساع كلمتي (space. place.) فأضافوا كلمة (location) للتعبير عن المكان المحدّد لوقوع الحدث، أما النقاد الفرنسيون الكلاسيكيون فاكثفوا باستخدام كلمتي: (lieu. Place) كمقابلين لكل أنواع المكان؛ حيث لم يكن معنى الفراغ [أو الفضاء] بمفهومه الحديث قد نشأ بعد، وعندما ضاقوا بمحدودية (lieu) بدؤوا باستخدام كلمة (espace) ... ينظر، المرجع نفسه، ص 23، و سيزا أحمد قاسم، بناء الرواية/ دراسة مقارنة لثلاثيّة نجيب محفوظ (ط1؛ مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984)، ص 75.

³⁶ سيزا أحمد قاسم، مرجع سبق ذكره، ص 75، 76.

³⁷ ولمزيد التوضيح، يمكن أن نعرض منظور سيزا قاسم هذا، على المثلث الدلالي لـ: أوجدن وريشاردز الوارد في كتابهما معنى المعنى:



³⁸ حسن نجمي، مرجع سبق ذكره، ص 53.

³⁹ على أنها مع ذلك قادت المفهوم إلى مأزق كبير، على رأي حسن نجمي دائماً، عندما ربطته بالوصف ليمثل بالنسبة إليها في النهاية "الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية". أما الزمن فيتمثل في هذه الأحداث نفسها وتطوّرها. وإذا كان الزمن يمثل الخط الذي تسير عليه فإن المكان يظهر على الخط ويصاحبه ويحتويه. فالمكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث " ... ينظر حسن نجمي، المرجع نفسه، ص 53 وسيزا قاسم، مرجع سبق ذكره، ص 76.

⁴⁰ حسن نجمي، مرجع سبق ذكره، ص 42.

⁴¹ وفي نفس السياق يقول الأستاذ محمد برادة: "قد يكون من بين أسباب استمرار استعمال المكان بدلا من الفضاء في الخطاب النقدي العربي هو الالتباس الذي اقترن بترجمة كتاب غاستون باشلار إلى العربية "La poétique de l'espace" تحت عنوان محرف هو "جماليات المكان" (...) إن مترجم الكتاب لم يفهم في نظرنا المحتوى الأساسي لكتاب باشلار، فانعكس ذلك على ترجمة المصطلحات الأساسية وعلى فهمه للأطروحة الباشلارية حيث اختزلها إلى أن "المكان هو المكان الأليف" و"المكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات

بيت الطفولة!!" " .. ينظر: مداخلة محمد بريدة في ملتقى جمعية الإمام الأصيلي بمدينة أصيلة المغربية حول "المكان والإبداع"، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 244، الأحد 18 شتنبر 1988، ص 5، في حسن نجمي، مرجع سبق ذكره، ص 43.

⁴² يعدّ ابن خلدون أول مفكر عربي يستخدم كلمة الفضاء بنفس المعنى المقابل للمصطلح الغربي: (Espace)؛ من حيث اعتبار اختراق الحركة للفضاء، يقول: "إن مساحة البيت، وهو المسجد كان فضاءً للطائفين"، ويكون بذلك قد ادخل عنصر الحركة في تعريفه للفضاء بما فيها الزمان في المكان ... ينظر،

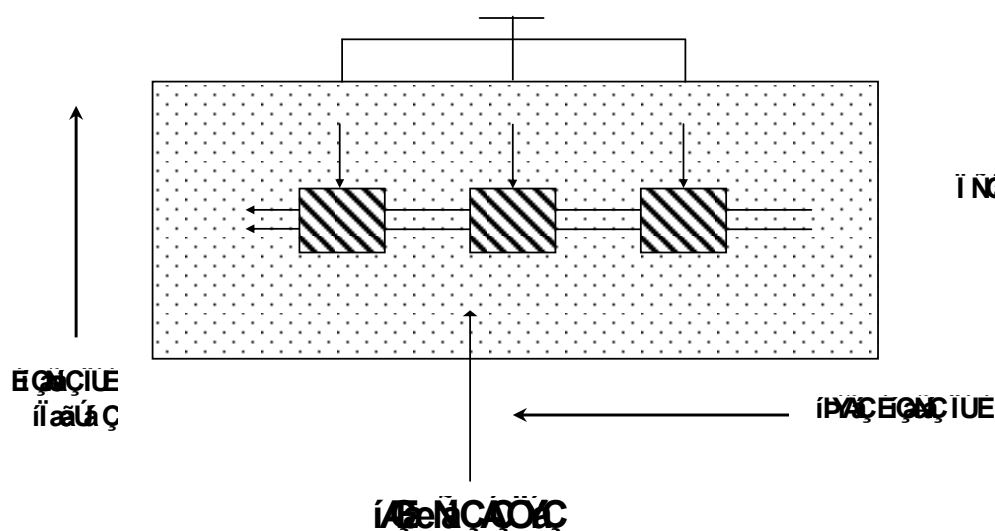
سعد عبد الكريم، مرجع سبق ذكره.

⁴³ ينظر، حميد لحمداني، مرجع سبق ذكره، ص 62-64.

⁴⁴ المرجع نفسه، ص 63.

⁴⁵ وهذا تخطيط أورده حميد لحمداني ليوضح كيف أنّ الفضاء يلفّ مجموع الرواية، بما فيها أحداثها التي تقوم في السرد، لأنّ هذه الأحداث تفترض دوماً استمرارية المكان وحضوره ...، ينظر حميد لحمداني، مرجع سبق ذكره، ص 64.

Diagramme de l'espace narratif



⁴⁶ Georges Poulet, *L'espace proustien*, (Paris: Ed. Gallimard(Tel), 1963) p. 51, in

حسن نجمي، مرجع سبق ذكره، ص 44.

⁴⁷ المرجع نفسه، ص 44.

⁴⁸ Georges Poulet, op. cit., p. 19, in

حسن نجمي، مرجع سبق ذكره، ص 45.

⁴⁹ ابن منظور، *لسان العرب* (ط3؛ بيروت: دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، دت.)، كون، ص 192.

⁵⁰ أبو البقاء، *الكليات* (القاهرة، 1281هـ)، ص 332 في طاهر عبد مسلم، مرجع سبق ذكره، ص 22.

⁵¹ أبو بكر الرازي، *مختار الصحاح*، تحق سميرة خلف الموالي (بيروت: المركز العربي للثقافة والعلوم، دت)، ص 145، 146 في طاهر عبد مسلم، مرجع سبق ذكره، ص 22.

⁵² المرجع نفسه، ص 22.

⁵³ ابن منظور، مرجع سبق ذكره، فضا، ص 282، 283.

⁵⁴ "الخلاء أخصّ من المكان" ... ينظر أبو بكر الرازي، مرجع سبق ذكره، ص 22.

⁵⁵ سعد عبد الكريم، مرجع سبق ذكره.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية

- ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة؛ بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التّاريخ العربي، دون تاريخ.
- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، الطبعة الخامسة؛ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 2000.
- بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، الطبعة الأولى؛ بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1990.
- جنيت، جبرار وآخرون، الفضاء الروائي (مجموعة مقالات)، ترجمة عبد الرحيم خزل، الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق، 2002.
- لحمداني، حميد، بنية النص السردى، الطبعة الثانية؛ الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1993.
- نجمي، حسن، شعرية الفضاء / المتخيل والهوية في الرواية العربية، الطبعة الأولى؛ الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2000.
- عبد مسلم، طاهر، عبقريّة الصورة والمكان / التعبير - التأويل - النقد، الطبعة الأولى؛ عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002.
- عبد الكريم، سعد، "الفضاء المسرحي بين المفهوم العربي والأوروبي"، جريدة المدى (8 فيفري 2005)، في: [http://www. almadapaper. com/ sub/06-133/htm]
- قاسم، أحمد سيزا، بناء الرواية/ دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الطبعة الأولى؛ مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984.

باللغة الأجنبية

- Bachelard, Gaston, La poétique de l'espace, 12^e édition; Paris: Presses Universitaires de France, 1984.
- Charaudeau, Patrik et Maingueneau Dominique, Dictionnaire d'analyse du discours, Paris: Editions du Seuil, 2002.
- Tadié, Jean-Yves, le récit poétique, France: Editions Gallimard, 1997.
- Weisgerber, Jean, l'espace Romanesque, Lausanne: Editions L'age d'homme, 1978